الثورية ومصادرها عند مارون عبود

بقلم الدكتور علي سعد

٢ ـ مارون في المعمعة الادبية

لا تكتمل صورة مارون عبود التي حاولنا ابراز ملامحها الثورية في مقالنا الماضي اذا لم نعرض لصورة مارون في معاركه الادبية والفكرية .

فلا مجال لفهم حقيقة مارون عبود اذا لم يوضع في مكانه الطبيعي الاصيل : الجهة الادبية التي سلخ فيها ما يقارب ثلثي القرن من عمره .

فالعمل الادبي ، بل الصراع الادبي هو الحقيقة الاولى لمارون عبود ، ولا احسب ان ساعة واحدة من عمر مارون الاديد لم تتصل بالكد في المطالعة والدرس أو التأليف والتدريس ، وما كان العمل الادبي أو التعليمي وسيلة من وسائل كسب عيشه . بل كان كل حياته وجوهر نفسه ، تماما كعمليات امتصاص الغذاء والهواء وعملية الازهار والاثمار التي تشكل صميم الصميم من حياة الشجرة .

هذه الامنية الحارة التي صدرت عن أعماق مارون تظهر الى أي حد كان يجد نفسه مشدودا الى الانسانية جمعاء بوشائج الكلمة وروابط الادب ، حتى لكأن لقاء الناس الملهمين على اجنحة الكلام كان فردوسه المنشود .

« ليتني أستطيع فأؤلف من أدب الناس كتابا عاما أدون فيه روائع

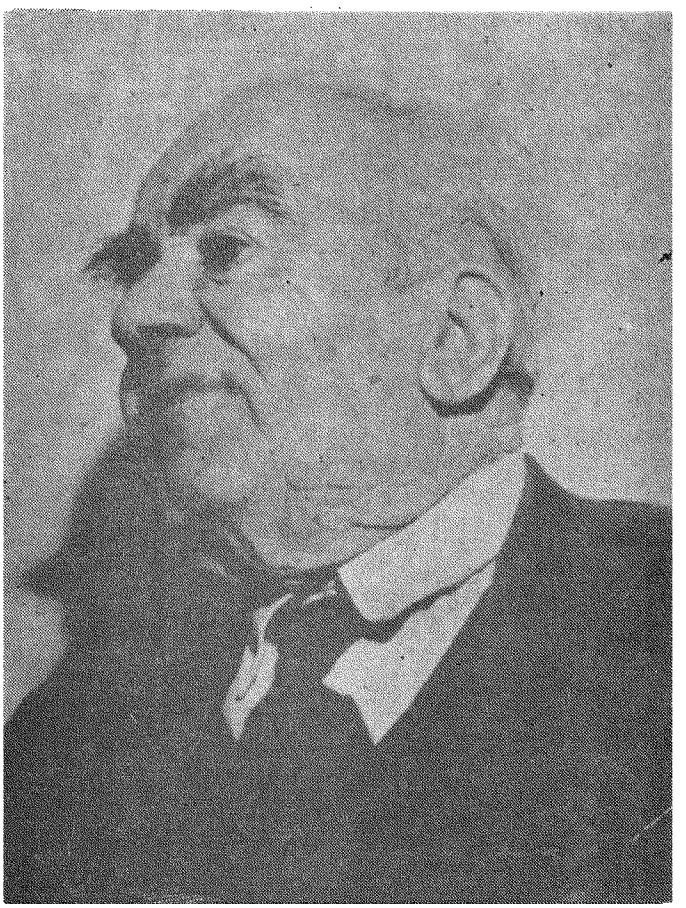

النوابغ . وبهذا أكتب تاريخ الانسانية الصادق » (١)

وليس من فلذة في شخص مارون ولا من خفقة في قلبه أو عقله لم ترتبط بألف وتر مع كتاب أو بيت من الشعر أو ـ نادرة أو أغنية .

فكان مارون استمع لنصيحة المهلب لاولاده « لا تقفوا الا عند زراد او وراق » . فاختار مملكة الاوراق يصب منها او يغنيها ، دون كلل أو ملل .

وان من يقرأ كتبه ومقالاته لا بد أن يدهش لكثرة ما يجده ، عند كل خطوة ، من آثار وشواهد لا تحصى على قراءات مارون التي لا يقاربها شيء في سعتها وتنوعها وتشعبها .

ولا يسع قارىء مارون أو جليسه الا أن يحتار في تمييز حقل المعرفة الذي كان يحسن استغلاله أكثر .

فقد كان رحمه الله ، يجيد اجادة متساوية في التحدث حديث المتضلع العميق الفهم بأكثر العلوم والفنون المتصلة بالتاريخ والادب والدين والفلسفة واللغة ان في العربية أو الفرنسية ، ولا بد لقارئه أن يدهش لرسوخ قدمه على السواء في تاريخ الاسلام والفلسفة الاسلامية وفي تاريخ الكنيسة المسيحية واللاهوت ، وفي علم النفس والفلسفة الحديثة . وقد بلغ من تمثله للكميات الضخمة من الكتب التاريخية والادبية والفلسفية التي اشبعها درسا وتنبيشا أنه ، في اشاراته المستمرة للشعراء والكتاب والصعاليك والملوك والقديسين والقسس الغابرين الذين تزخر بصورهم حكاياته وقصصه ومقالاته ، يبدو كما لو كان يعايش في آن واحد كل الاناس الذين مروا في خاطر الزمن ، مهما بعدت العصور وتباعدت الاقطار التي تحركوا فيها ، أو كأنه يحيا في قلب الاحداث القديمة منها والحديثة .

انه يبدو كما لو كان يحلق فوق الزمان والمكان بأجنحة بصيرته النافذة وكما لو كانت المسافات والابعاد تمحى والعصور تنهار أمام عينيه وفي خاطره ، فتظهر الحياة الانسانية في صيرورتها ووحدتها واستمرارها وسيرها الصاعد نهرا متصلا يجري كله في قبضة يده أو في أغوار قلبه.. فهو ليس في حاجة الى أن يذهب بعيدا ليستمد من هذا النهر العظيم الذي امتزج بخلايا نفسه ما يحلو له كلما احتاج الى شاهد او سند فيختار النادرة او الطرفة المستملحة والكلمة الفذة يكمل بها الصورة التي يبتغي ان يوضح المغزى العميق الذي يرمي اليه او يعقد الحكاية التي يروي للتفكهة أو للنصح أو للاثارة .

هذا الانسان الذي لا نعرف من هو أجدر منه بلقب «راهب الفكر» أو ناسك الاوراق ! لكثرة ما عاشر الكتب ونقب في بطون الاوراق قديمها وحديثها ، وخاصة لكثرة ما حمل في كل ما كتب وكل ما قال من منقولات الكتب ومخزوناتها ، هو أبعد الناس عن الاكتفاء بالكتاب كمصدر لمعرفته . انه أبعد ما يكون عن الصورة التي ابرزها عمر الفاخوري عندما تحدث عن شخص « من حبر وورق » لا ينطق الا بالاحكام التي تلقنها في الكتب مارون عبود ، على طول تعلقه بالكتب والفته لها ، كان أبعد الناس عبودية لما تحتويه . وسوف نفصل في حديثنا اليوم المدى الذي بلغه في ثورته على الاحكام الجاهزة التي تتناقلها الكتب قديمها وحديثها وعلى الافكار المتواضع عليها والآراء التي يتداولها الناس بالتقديس والخشوع نقلا عن مفكرين قدماء ومحدثين عرب وافرنج كرستهم الشهرة .

ولكننا نحب منذ الآن أن نوضح أن مارون عبود ، كان رغم اغراقه في القراءة وفي التلفت للماضي وللبعيد بوساطة الكتب ، لم يكن أبدا يدير ظهره للحياة الراهنة للحياة « الحية » التي كانت تعصف حوله وتتبسط أمام عينيه وعلى مرمى حواسه وتدور باقدار الناس الذين كانوا يعيشون حوله أو الذين كانوا يعمرون عصره ومجتمعه .

فمارون عبود هو أحد الكتاب العرب القلائل الذين فتحوا على مصراعيها الابواب لدفق الحياة النابضة ليهب قويا جارفا آثارهم الادبية فيهما حرارة ونكهة لا مثيل لهما .

أليس مارون هو الذي يقول مخاطبا الدكتور اسماعيل ادهم :

---

(١) دمقس وارجوان ص ٢٤٦

« سيدي الدكتور العلامه (١)

محدثك اليوم تلميذ مدرسة تحت السنديانة ، قرأ الابجد والقدوس والطوبى في ظل كنيسة عين كفاع المطعمة .... اما الدكتورا فحزتها من جامعة الجديدين ، وأظنني أخذتها بحقها . دفعت ثمنها ضوء عينين قد يجف زيتهما قبل انتهاء الرواية التي اتمنى أن لا يعقبها فصل مضحك » ....

ولئن كان الكتاب المعلم الدائم لمارون عبود، فان التجربة الحية لم تنفك يوما عن ان ترفد قلبه وقلمه بدروس لا ينقطع سيلها . وان كتب مارون عبود وخاصة تلك التي جمع فيها سلسلة مقالاته حول القضايا السياسية والاجماعية ، وحكاياته (٢) وحتى مقالاته النقدية ، وحملاته المتواصلة في الدفاع عن بعض الادباء الذين يعتقد أن مجتمعنا اللبناني قد غمطهم حقهم (احمد فارس الشدياق وجبر) تظهر لنا مدى حرص مارون على الاتصال المباشر بالناس وعلى الالتصاق المستمر بواقع مجتمعه وبأحداث العصر . لقد ذهب مارون الى أبسط بسطاء الناس ، الى الفلاحين والقرويين والعجائز والكهان يلتقط من أفواههم الحكايات والنوادر والامثال والتعابير الطريفة التي كان يرصع بها احاديثه وكتاباته ويزهو بحلاوة وقعها وصحة مراميها بما تنم عليه من سلامة الطبع وحسن الذوق عند عامة الشعب . ومارون عبود هو أحد رواد الادب الواقعي في العربية وأحد أوائل الداعين ، بالنصح تارة وبالمثل والقدوة الحسنة مرات كثيرة ، الى ضرورة انزال الادب من برجه العاجي الى حياة الناس وواقعهم والى ضرورة وصل ما انقطع بين الاديب وجماهير الناس ، وبين اللغة المكتوبة ولغة الشارع . وهو أحد ادبائنا القلائل الذين أحبوا الحياة الانسانية بكل مباهجها ومآسيها ، فرآها على علاتها وفي كل وجوهها جديرة بقلم الاديب وانتباهه فما استنكف عن ان يجعل قلمه ، بحثا عن مادة لالهامه ، في أتفه وقائع حياتنا اليومية ، كقضايا الانتخابات ومشاكل الغلاء ومآسي الروتين الحكومي والبطالة وغير ذلك ، وهو لم يأنف من متابعة أحداث عصره ومن تسجيل أصدائها في مقالاته المتواصلة بالحماس نفسه الذي كان يقضيه في التقصي ببطون الكتب عن عبر الماضي .

ولكن لا يغربن عن بالنا أن مارون عبود ، ظل في جميع حالاته ، الاديب الذي لا يغرف من معين الحياة ولا يستنطق الناس والوقائع والاحداث الا ليغني ادبه وليملأ جرابه الثقافي وليعيد الى قرائه ما اختزنته ذاكرته وصقله ذوقه ، من كلمات وصور وملح وطرائف ودروس وعبر .

وهو في كل مشاهداته واتصالاته مع الطبيعة أو الناس لا ينسى أبدا قراءاته الفنية . ولا يغفل أبدا عندما يصور أحد اشخاصه أو أحد المناظر الطبيعية أن يشير الى حدث تاريخي أو أدبي أو أن يلمح تارة بمقطع من بيت شعر او بعبارة معروفة او بكلمة ذهبت مثلا الى العالم الذهني المتشعب الذي تأتي اليه من الكتب الادبية او التاريخية أو الدينية التي قرأها .

فانظر في حديثه عن الطائفية في لبنان (١) كيف يستعمل الاستعارات بلباقة ورشاقة تلقيان على أدبه نكهته المحببة :

قيل لي : انهم هناك (في أوروبا) يعينون في المخازن الكبرى مستخدما (برسم البهدلة) فكل تقصير مع الزبائن ينسب اليه ويصب عليه الخواجه جام غضبه حين يشكو اليه احد ابطاء او تأخير . وكذلك فعل بنو اسرائيل حين صبو تمثالا سموه (تيس الخطيئة) فكانوا يتمسحون به لحمل خطاياهم عنهم ثم يذبحونه ليبرأوا من ذنوبهم وهكذا نحن نعيب زماننا والعيب فينا . فلو تطهرنا من عنعناتنا عمليا لا قوليا اختفت أغراض الطائفية التي هي « كالعر يكمن حينا ثم ينتشر ».

والطائفية عندنا :

كأهل النار ان نضجت جلود أعيدت للشقاء لهم جلود

ثم يقول في مكان أبعد :

« .. وامتنع الرسول حتى عن الزاد لانه مزود من الحاج مصطفى فصح قول الشاعر : ويأتيك بالاخبار من لم تزود .

وحين يحدثنا عن احد الاعيان يصفه بقول النابغة : كبير اناس في بجاد مزمل »

وفي مكان آخر يبدأ حديثه عن حب اللبناني للسياسة بهذه الكلمة التي استعارها من « كتاب الحيوان » « زعموا أن الضب يعيش بالنسيم. وانا أزعم أن اللبناني يعيش بالسياسة » .

وهو يضع عنوانا لحديث عن استغلال لصوص الموظفين لخيرات الدولة « نامت نواطير مصر » (١)

وهو يقول في مقال حول « الادب الفرعوني » (٢)

« فآه وألف آه من الجوكي اللعين ، أو الغلام الخف بلقة حامل لواء الشعر في النار »

والآن بعد أن حددنا مكان العمل الادبي من نفس مارون ومن حياته، لنحاول أن نتلمس مظاهر الثورية في أدبه والمحتوى الثوري في آثاره .

قد يعتقد بعض الذين قرأوا كلمتنا الماضية حول الثورية ومصادرها عند مارون عبود اننا بالغنا في اضفاء الصورة الثورية على استاذنا مارون أو أننا حملناه من الثورية أكثر مما تحمل كتاباته أو أفعاله .

فالى هؤلاء المتشككين نسوق النصيحة بأن يقرأوا سلسلة مقالاته عن الشعر الوطني (٣) حيث حاول ان يبين اهمية الشعر الوطني في بناء المجتمعات الحرة وفي تغيير مصائر الشعوب . فيقول بالحرف الواحد :

« ان الشعر الوطني من اسمى الشعر ، والشاعر المستعبد يخلق امة حرة ان كان حر النفس ، وهل استطاع الاستبداد وطغيان الملكية أن يستأصلا حرية فولتير الاديب الشاعر العظيم ؟ اما نفي الى فرناي ؟ اسكت بطرك فرناي في منفاه ، اما ظل ينفخ في بوق الحرية حتى ايقظ الامة الافرنسية ؟ ...

ان لفولتير اشباها في الامم وهم الذين يخلقون الشعوب ولكن ليس شعر كشعرنا الوطني الذي يحقنون به آذاننا منذ الف سنة ، فلولا فولتير لما كانت دولة حقوق الانسان ، ولما صارت التي نفي منها حيا ولم يضم جثمانه ترابها حيا ، ملجأ لكل من يكون فولتير أمته ، وعهدنا ببلاسكو ايبانيز غير بعيد » .

ثم يعقب بنشر ترجمة لروائع من الشعر النضالي في الآداب العالمية .

ومن هذه القصائد قصيدة للافونتين بعنوان « قروي الدانوب » وهي قصيدة تروي قصة قروي استنابته عنها المدن التي يسقيها نهر الدانوب ليمثلها أمام مجلس الشيوخ في روما ، فقام يخاطب الرومانيين بكلمات بلغ من فصاحتها وصراحتها وكبريائها ان طلب مجلس الشيوخ تسجيل كلام هذا الرجل ليكون مثالا للمتكلمين في الآتي . وقد جاء في هذه الخطبة هذا المقطع من قول القروي :(٤)

« فلآثامنا يد اقوى في بلايانا من سطوة رومة التي صارت آلة لتعذيبنا .

« خافوا ايها الرومانيون من أن تثقل السماء اليكم بؤسنا وشقاءنا. وأن يكون انقلاب عادل فتقلدنا سلاح تاراتها القاسية ، خافوا أن يجعلكم غضبها عبيدا لنا .

« لماذا نحن عبيد لكم ، من يقول لي .

« لماذا تساوون أنتم مئة أمة مختلفة الاجناس ، وأي ناموس جعلكم اسيادا للكون .

« لماذا تقلقون حياة بريئة ؟

---

(١) دمقس وارجوان ص ٢١٤

(٢) « على المحك » ، و « من الجراب » و « حبر على ورق » و«احاديث القرية » و « وجوه وحكايات » .

(٣) « حبر على ورق » ص ٤١

(١) من الجراب — ص ٦٥

(٢) من الجراب ص ٨٦

(٣) «دمقس وارجوان» ص ٢١٤

(٤) « دمقس وارجوان»

« فما يفعله بنا عمالكم يكاد أن لا يصدقه العقل ...

فالارض وكدح الناس في عملهم لا يشبعان مطامعهم النهمة .. اننا نغادر المدن ونهرب الى الجبال . اننا نهجر نساءنا العزيزات ولا نخالط الا الدببة المخيفة ، فقد يئسنا من ولادة ابناء تعساء نملأ بهم لرومة بلدا تضطهده » .

اننا اوردنا هذه المقاطع لنزيد في توضيح ملامح المحتوى الثوري عند مارون عبود .

فهو بحديثه عن دور الشعر الوطني في بناء الامم وضع التاريخ وفي ترجمته لهذه الخطبة القوية التي تصفع النظام الاستعماري القديم ومحاولات الاقوياء استعباد الشعوب والقضاء على كرامتها وانسانيتها وفضائلها ، يدل الشعراء والادباء العرب على الطريق الثوري ، طريق النضال لاجل التحرر من الاستعمار ومن الاستبداد والعبودية .

ولكنه لا يكتفي بأن يدل على المحتوى ، انه يهيب بشعرائنا وأدبائنا لان يخرجوا من ظلمات التقليد في مضغ الصور والتعابير والاساليب البالية في التعبير عن المشاعر الوطنية. وهو يحضهم على تنويع الاساليب والخروج من ظل التقليد الى ضوء الانطلاق والانفتاح .

فهو يعلن الثورة على الشعراء الذين يطلقون الشعر التافه في المناسبات الوطنية فيسميهم « شعراء الظل » ويري ، مع بودلير ، ان هواء البلادة يهب على وجوههم ، فيقول في مخاطبتهم (١)

« الا يعفينا الشعراء من هذا الشعر المشلول المحلول ؟ فالى متى يصيحون يا ليل يا ليل ،والشمس تكوي الجباه ولماذا لا يتحولون من هذا الظل الذي بلاهم بداء الاستسقاء حتى قيحوا » .. ثم يقول بعد نقل نماذج من الشعر النضالي عند الشعوب الاخرى : « نرجو أن يكون فيها حصن وتذكير لشعرائنا المحلقين النوابغ فيبرحوا الظل فنرى في محياهم غير هذا الاخضرار اخضرار الحرباء التي لا تدع غصنا حتى تمسك باخر فلا تبرح الظل ». ثم يروي قصة هر كان يربيه والده ، وسماه « دياب » تيمنا باسم المرحوم دياب بن غانم راعي الخضراء . ويصف بطولة هذا الهر في مكافحة الجراد الذي وفد عام ١٨٩٩ . وكيف هب للقاء الجراد فيهب ويفتك ويفترس وظل في هذا الجهاد حتى لفظ انفاسه .

واليك هذا القسم الذي يعلنه مارون في محاربة الشعر البليد .

« ان شعراء الظل يا اخي اكثر من الجراد ، فماذا يفعل بهم الف دياب .» وان كنت تعتقد بقول المثل : لا يموت حق وراءه طالب ، فثق باني ساظل مطالبا بحقوق للادب قبل هؤلاء ، وان مت فترحم على الف دياب »

وفي موضع اخر يقول حول « مهمة الناقد » هذا القول الزاخر بالتحدي (٢)

« ان المقلدين هم اعدائي في الادب . انني انشق متى رأيت شاعرا بلا شخصية يقلد هذا ، ويحاكي ذاك ، وينتكر لنا ان لم نسمه مبدعا .»

« ما اقل حظ الناقد ، انه ناطور غير ماجور لا ينام عن ثعالب الكروم ونسدد اليه بندقياتنا وسكاكيننا ، ولكنه يجالد حتى اخر ساعة ، ولا يترك الا اذا فرغت يده » .

ان في هذه اللهجة المسرحية التي يتخذها مارون على مافيها من دون كيشوتية ، مظهرا من مظاهر طبيعته المبنية على روح التحدي والعناد وهي المدخل الى الروح الثورية ونفسا رسوليا في التعبير عن الارادة بنذر نفسه لخدمة قضية الحرية والادب والشعر بالعمل ابدا على قطع الطريق على تسلل التفاهة والبلادة الى الشعر الوطني .

واننا لانعرف اديبا عربيا كرس من عمره ماكرس مارون عبود في النضال الشاق لتطهير ساحة الشعر من الطفيليين والمقلدين والمجترين.

فاسمع بعضا من اقواله الملتهبة اللاذعة في تحديد الشعر الخالد والشعر الاجوف (٣) :

« لولا الشاعر لماتت الالهة ، فالشعراء خالدون ومخلدون ..

« لا نعني بالشاعر كل علاك وقوافة .. »

« ولا نعني بالشاعر ذلك الصاف الكلمات ، الغواص على « درر » الالفاظ فمن يعجز عن التفكير والابداع يعتصم بالفصاحة الجوفاء .. ومن يفته ابداع الجديد يكثر من اجترار القديم ، فحتام ننبش القبور لنلبس الاكفان عربية واعجمية ؟

فمنهم من ينكت الطول والدمن ويستوحي دارة جلجل ومنهم من يفتش عن نفسه في حكم ابن ابي سلمى الجافة كحكم الصحراء ، وزهديات ابي العتاهية الملمومة من هنا وهناك كخبز الشحاذين ..

ومنهم من يتعنتر فيعرض سيفا ورمحا ويناجي عبلة وهميه كفحول تابط شرا .

ومنهم من يهدج حول بيت الفرزدق كالقنافذ فيراه موسعا لكبره في المقعد . فيدعه ويتبع جريرا فيظما في فيفائه ويتيه في بهمائه .

ومنهم من يتغلغل في ماخور ابي نواس ويأوى الى خمارته فيحلو انشاده لانه صادف نفسه .

ومنهم ... من يقف بباب المتنبي فيصدف عنه شيخ الشعراء هازئا متمتما : « اراه غبارتي ثم قال له الحق ... »

ومنهم من يقصد البهاء فيتفيأ في ظلال راحته ، مستروحا نسيمها البليل ، ثم يسف ولا يقع .

ان معظم شعرنا العربي لاتزال في أنفه الخزامة ، وفي حنجرته هدير الفحول ، وفي رجله خلاخيل تخشخش » .

هذا الكلام القوي الساخر يحدد بعض جوانب الاخطاء المزمنة التي يتهافت عليها الشعراء المقلدون . وهو ، من جهة اخرى يظهر شجاعة مارون في اقتحام القداسات التي بنتها الاحكام المتناقلة منذ عشرات القرون حول بعض الاسماء الطنانة في الادب العربي القديم . فمارون لا يتهيب من زعزعته الشهرة العريضة التي يتمتع بها امثال زهير بن ابي سلمى والعتاهية ؛

ولا عجب ان ينفر من كان في مثل مزاج مارون الناري الفائر ، من برودة شعر الحكم وبلادته .

وفي كتابيه « على المحك » « ومجددون ومجترون » نماذج من هجماته المتلاحقة لدك حصون الشعر الذي كان يحتل الصدارة في المسرح العربي ولم يكن احد ليجرؤ على ان يقول له « ما احلى الحكل بعينيك » : شعر العقاد والملاط وبشارة الخوري وعلي الجارم والهراوي وشفيق المعلوف وغيرهم ممن كانوا يعتبرون ولا يزالون أئمة الشعر العربي الحديث ولا تزال ترفع لهم الوية امارة الشعر وتقام مهرجانات يوضعون فيها قريبا من سدرة المنتهى او أعلى . وقد نجد اليوم مارون ظلم بعض الشعراء او بعض القصائد في حملاته تلك العنيفة القاسية الى ابعد حدود العنف والقسوة التي شنها في ايام مابين الحربين ، عندما كان قلمه في أوج ضرامه وضراوته . ولكننا عندما نمعن التفكير نجد ان حكمنا بقسوته ليس الا من باب الرأفة بماضينا الشعري والتعلق العاطفي بقيم ومقاييس كنا نؤمن بها لاننا لم نكن لنجرؤ على الالتفات الى الآفاق البعيدة ولا على استقبال النفحات الجديدة . انها جاذبية الجمود التي كانت ولا تزال تمنعنا من السماح بتهديم وجوهنا الشعرية التي بالفنا في رفع اسمها في قلوبنا لانها خاطبتنا بلغة ألفناها منذ اكثر من الف سنة وتفتحت لها في نفوسنا مسارب معبدة منذ القديم ، تسهل تسللها الينا بفعل غريزة البحث عن الجهد الاقل .

ولكن مارون ، استطاع بعلمه وحسن بصره بتطور الشعر العربي واطلاعه على اصول النقد والشعر الافرنجي ، وبجرأته ، ونزعته للثورة على المألوف ، ان يميز كل ما في شعر هؤلاء الشعراء المخضرمين من اجترار لرواسب الشعر العربي القديم ومن تزييف للامح الشعر الاجنبي الذي كانوا ينسخونه . ومن هنا كان اندفاعه ضد التيار السائد في ذلك الحين لتقويض دعائم الشهرات العريضة التي كان يتمتع بها اصحاب ذلك الشعر . وكالعادة كانت هجماته في عنفها على قدر المقاومة التي كانت تلاقيها والسخط الذي كانت تثيره ، فقد بلغ من رسوخ الشهرات

ـ التتمة على الصفحة ٧٣ ـ

(١) دمقس وارجوان ص ٩٩
(٢) دمقس وارجوان ص ٢٥٦
(٣) على المحك ص ٢٢

الثوريــة ومصادرها

ـ تتمة المنشور على الصفحة ٦ ـ

التي تعرض لها ان الكثيرين من انصار الشعراء اصحابها ، كانوا ينفرون من مجرد سماع اسم مارون عبود . ولكنهم اصبحوا اليوم يرون انه كان على حق وانه كان بين القلائل الذين رسموا طريق المستقبل للشعر العربي . ومنهم من يوليه اليوم اضعاف آيات الاعجاب التي كان يغدقها على الشعراء ضحاياه .

ومن الحق الاعتراف بانه كان لهجمات مارون عبود على اصحاب الزعامات الشعرية في ذلك الحين فضل التمهيد للحركة الشعرية الجديدة وافساح المجال لظهور طلائعها على المسرح الادبي .

والدور الثوري الكبير الذي أداه ، مارون عبود على الصعيد الادبي ، انه جرأ الناس على التطاول لمناقشة بل ورفض الكثير مما كان يعتبر مقدسا ومحرما و « تابو » في الشعر والادب والفكر ؟ فليس من اسم مهما كان مكللا بالمجد ولا من مقام مهما علا شأنه يقع فوق النقد والشك والتساؤل . وليس من فكرة مهما بلغ من رسوخها في أذهان الناس يسعها ان ترقى فوق النقاش .

لقد رأيناه كيف يزعزع اطمئناننا لابداع ابن ابي سلمى وابي العتاهية . وفي مواضع اخرى هو يؤخر مواضع شعراء قدمهم الاوائل من امثال ابي فراس والمعري وابن الرومي والفرزدق

فاسمعه يقول في مقالة له حول « مهمة الناقد » (١) كيف يوضح مذهبه في عدم الرضوخ للرأي المتبع وفي رفضه « للوثنية الادبية »

« يقولون ألسنة الخلق اقلام الحق ، اما انا فلا اراها كذلك ، بل ارى القوم يقودهم واحد كالانعام فيرضخون ويسمنون .. ماآفة الفن الا عبادة القديم التي اطلقنا عليها اسم الوثنية الادبية . اننا نحاول القضاء عليها ، فاذا افلحنا فذاك مانرجوه لان الرفق والهوادة لاتقر حقيقة ولا تدحض باطلا » .

يارب مكتئب ، لو قد نعيت له ، باك ، وآخر مسرور بمنعانا

ومن مظاهر ثورة مارون على التبعية والوثنية الفكرية حملته على المستشرقين الذين كان ينكر عليهم عدم فهمهم واسرار لغتنا وبلاغتنا ومحاولاتهم تطبيق مقاييس آدابهم على ادبنا وسخريته من ادبائنا الذين ينقلون آراء المستشرقين دون تمحيص ونذكر من ذلك حملاته على كراتشوفسكي (٢) ، الذي ظلمه كثيرا عندما اتهمه بنسخ اراء الاخرين ومسخها ثم عاد فأصلح بعض مانسبه اليه بنشر رسالة المستشرق جب في الثناء عليه . ثم حملته على بلاشير وماسينيون واتهامه طه حسين باتباعهما اتباعا أعمى في الكثير من آرائه في كتابه « مع المتنبي » . فهو مثلا ينكر على طه حسين تأثره بآراء المستشرقين في انكار وجود الشعر القصصي عند العرب وغلبته الشعر الغنائي لمجرد ان الشاعر العربي لايتخلى من ذكر نفسه ومأساته عندما يسرد الاحداث . فاسمعه يقول ردا على هذا الزعم : (٣)

« فلا يلزمنا تطبيق فننا على شعر هوميروس والفردوسي وغيرهما ليرضى طه حسين . ان شخصية المتنبي غير شخصية هوميروس . ولا يستوي الاعمى والبصير والسامع والرائي ، وانني أرى العرب ابصر بمواطن الشعر ـ وقد يكون للوزن والقافية يد في ذلك . فهو يأنفون ان يكون شعرهم كالبو ، فلم يحشوه بالاعلام والارقام بل كانوا يهرعون الى النثر حيث لايصلح الشعر ، ولهذا لم يخضعوا شعرهم لملحمة ما . اما تحطمت شاعرية سليمان البستاني ، وهو الشاعر البصير ، حين نطحت تلك الجدران التاريخية في الالياذة . هل يحيا الشعر اذا لم ننفخ فيه من روحنا كما ينفخ الله مرة ثانية فكانت كلمته المتجسدة ؟ وهل نطلب من اعمى كهوميروس ان يكون في شعره فحيح المتنبي ذاك الحية الذكر ؟

ان طه لايسمح للمتنبي ان يقول :

ورعن « بنا ، قلب الفرات كأنما ، تحز عليه بالرجال سيول
تمل الحصون الشم طول « نزالنا » فتلقي « الينا » اصلها وتزول

يريد طه ان ينكر المتنبي وجوده فيقول : ورعن به قلب الفرات ليصير شعره قصصيا .

«ان المتنبي لاينزل عن « نا » حتى ينفخ في الصور ، ويلقي المعري اباه عند الحوض ، نريد ان يكون لنا شعر قصصي وطه لا يريد ما لم ينس المتنبي نفسه ، وعود العجل الى بطن أمه صعب . فامرنا لله بين هذين العنيدين » .

وفي علمي ان العنيد الحقيقي هو مارون . فهو يضفي على المتنبي العناد الذي حمل عليه هو ، والذي يحمله على الدفاع حتى الموت عن القضية التي يحسب انها في جانب الحق والصواب او على الاقل هو يظهر استعداده واستعداد أبطاله للموت في الدفاع عنها واحب القضايا الى نفسه هي القضايا الخاسرة او القضايا اليائسة التي لايرجو منها الا صرف الجهد وتحريك طاقات النضال التي تنوء بها نفسه .

وهو في كل المعارك التي يزج نفسه بكليته فيها ، يبدو دائما كمن يحمل روحه على كفه ؟ انه يبدو كطالب استشهاد .

روح الفداء والاستقبال ، هذه ، هي وجه من وجوه النزعة البطولية التي تقوم في صميم الجوهر الانساني عند مارون عبود ، الانسان الثائر على كل استعلاء واستبداد ، وتعسف ، والاديب النافر من كل تافه وقبيح ومبتذل وتقليدي .

والنص الاخير الذي اوردناه يدلنا على مدى تحرر مارون من اغلال التبعية الفكرية وتمرده على الوثنية الادبية . فهو يأبى ان يقف امام من تعتبرهم البشرية جبابرة الادب ، كهوميروس ، موقف الخاشع في الوادي المقدس وهو خلو من عقدة النقص التي تحمل اكثر ادبائنا ، والكبار منهم بنوع اخص ، على الاعتقاد بان ادبنا هو ادنى ، في كل الميادين ، من آداب الشعوب المتحضرة الاخرى ، وبانه لامجال لوضع كبار شعرائنا وكتابنا الى جانب كبار الشعراء عند الامم الاخرى ، اما مارون فيزهو ابدا بأدباء وشعراء العربية ويباهي بهم الاداب الاخرى ، ولا يخاف ابدا من تسفيه آراء كبار الكتاب الذين يقولون العكس . ان نفسه المتمردة كانت تحفزه دائما للانطلاق في سبيل خفض شوكة الشعراء والكتاب الذين رفعتهم الشهرة الكاذبة وغباء الجماهير الى ذرى لايستحقونها . وهو لم يكن يتهيب او يوقر حتى كبار الشعراء .

ومقدار ماكان قلمه يتأجج بالقسوة والسخرية ويتحول الى سياط لاذعة كلما كان يتناول اصحاب الشهرة من الشعراء والكتاب المقلدين او المزيفين ، كانت صدره ينفتح بالمحبة واللطف والعطف عندما كان يقع على ديوان لاحد الناشئين من الشعراء . انه كان يضع من الاناة والصبر والجد في تفحص كتب الناشئين وفي روزها واستكشاف ماخفي من محاسنها بقدر ماكان يضعه في دراسة الشعراء والكتاب راسخي القدم.

فمارون الناقد لم يكن ينسى انه معلم ، قد سلخ قسما كبيرا من عمره في تصحيح الفروض التي يقدمها تلامذته ، فاعتاد على التفاهات التي كانت تملأها . وقد كان يرى اولى واجبات المعلم والناقد ان يكتشف المواهب النادرة الكامنة في جيوش التلامذة والكتاب والشعراء ، مثلما يسعى الباحث عن الذهب الى اكتشاف فلذات المعدن الثمين بين اطنان الصخور او الثرى على كل حال ، فان هذه القسوة في معاملة الادباء والشعراء الاقوياء وهذه الرحمة في معاملة الناشئين الضعفاء وكل طري العود من الطلبة ورواد العلم كانتا تشكلان وجهي الدنيا في نزعة مارون الثورية الضاربة جذورها فيما يشبه فروسية القرون الوسطى . لقد كان يكره الغرور والتعالي عند البعض ، لذلك قسا على العقاد والاخطل وطه حسين والمستشرقين ، وعلى العكس كان يحب الوداعة عند الكتاب والشعراء . فاسمعه يوضح سبب اعجابه بالمازني : « رأيت فيه يومئذ رجلا اعرج قليل الظل ، ذا عينين كأنهما محاجر مسك ركبت فوق زئبق. ثم كنت اقرأه بامعان واستقري من خلال ما يكتب فاذا بي اراه جبارا ولا ذا

(١) دمقس وارجوان ، ص ٢٥٩
(٢) مجددون وقدماء ٧٥-٨١
(٣) الرؤوس ٢٠٦

عنجهية وان كان ذا عاهة .. فهو ، في نظري ، ان صدقت تلك اللحظة العابرة ، حمل كتاب عصره الوديع ، لاينتفش ولا يتفرعن . لم يته في مجاهل السياسة ، فعاش اديبا ومات اديبا ! »

وهذه النقمة على كل جبار متسلط كانت تحبب اليه بشعار القائل :

اذا الملك الجبار صعر خده مشينا اليه بالسيوف نعاتبه

ولا يحسبن القارىء ، عندما يرانا نتحدث عن حملات مارون عبود على كبار الادباء والشعراء الذين كانوا يحتلون المسرح الادبي ، رغم طابع التقليد والزيف الذي يميز اكثر شعرهم ، ان مارون لم يكن يعرف غير التهديم والبحث عن معايب القول ومساوىء الكلام لدى شعرائنا وادبائنا ..

لا ، ان آثار مارون النقدية ، لاتقتصر على هذه الناحية السلبية ، فهي ملأى بالمحاولات الجدية لوضع الخطوط الواضحة للادب الجيد والشعر الجديد الذي كان يبشر بالحياة والبقاء .

فاستمع اليه في حديثه اللاذع عن الاسلوب والتعبير والوزن والقافية (١) ، ردا على محاولات الكتاب المتحذلقين كالزيات والرافعي تقليد الكتاب القدماء ، كيف يدل على الطريق الصحيحة ، الطريق الجديدة التي اتبعها عباقرة الادب منذ القدم ، والتي تقضي بالاتصال الدائم بالحياة وبتفهم ظروف العصر الذي يعيش فيه الكاتب لا بتقديس البالي والرث من العصور الخوالي ، استمع اليه كيف يدعو الى اختيار الطريق الوسط بين العامية « لغة الشعب » والفصحى لغة الخاصة ، التي يريدها رطبة لاجافة :

« الادب كالاحياء مواليد ووفيات ، والالفاظ لاتؤخذ من القواميس ، بل تستشار القواميس بشأنها . اننا لا ندعو الى الفوضى ، بل نحاول طمر الخندق الذي حفره التنطع والتحذلق فحال بيننا والقراء والسامعين فلننزل قليلا عن عرشنا ، وهم يصعدون الينا متى حدثناهم بفصحيهم ، فنتلاقى ونسير عصبة واحدة تحت لواء اللغة الفصحى الرطبة لا الجافة المكروهة ، ليس التجديد باحياء كلمة مهجورة كطنز الرافعي . فنحن في غنى عنها وعن شرحها وعن شروى بشاره الخوري واضرابها ـ اللهم في الشعر ـ فللشعر في كل أمة الفاظ يعرفها اصحاب الذوق .

« اننا في حاجة الى ثورة ادبية لنريح اللغة من بلاياها ونرتاح من هؤلاء النملة الذين لا ينامون الليل ، فمن اتجه منهم صوب التجديد في شبابه هجر بيته الجديد في كهولته ، وقعد في القبو حيث الرطوبة والعفن . اننا لا ندعوهم الى بدعة او فتنة ، اننا ندعوهم الى لسان الجاحظ والاصفهاني وفصحاء العرب مع نبذ مابلي ورث واحياء مايدعو اليه الاستعمال ؟ ففي القديم الفاظ تفيض حياة ، وفي اللغة العامية الفاظ فصيحة وشيقة لايغني غناءها غيرها ، فلنترك البهلول لما استعملته له فهي لم تتعد به حد الفصاحة .

« هذه هي الخطة الرشيدة التي نرى فيها صونا للغة الفصحى من ثورة الغوغاء عليها ، فاللغة العامية تصير فصحى بعناء يسير وتهذيب قليل ؟ فلننم سجايا الادبية في ظل الفصاحة والاعراب والتفكير والتعبير المستقلين لا في التفتيش عن الرواسب والاغراض القديمة . فكما يكره احدنا اولئك الذين يمضغون الكلام ويتشدقون به كذلك يبغض القارىء من يحدثه بغير لسانه وتعبير من ايام سد مأرب . »

ان مارون الثائر على التحذلق والعنجهية والتقليد ، لاينفك يعبر عن هذا اللهب الثوري الذي ظل ينفجه بالشباب حتى الثمانين من عمره .. ويبتديء هذا اللهب الثوري في نظرته التحررية للادب والفكر ، هذه النظرة التي لم تفارقه حتى ايام كهولته وشيخوخته والتي كانت تجعله دائما في صف الجيل الفتي من الشعراء والادباء وبمعزل عن ابناء جيله الذين ظلوا يتخبطون في اغلال التقاليد .

ان مارون عبود الذي مادرجت العادة في السنين الاخيرة على القاء لقب « شيخ الادباء » عليه الا بسبب عمره ، كان يقف نموذجا حيا للشيخ الذي انفتحت مغاليق نفسه لما يمكن ان يسمى بالروح العصرية .

وهذه الروح العصرية تتجلى في الشجاعة التي كان يبديها في رفض القديم البالي ، وفي دعوته للتوجه ، باعتدال الى آداب الشعوب الاخرى ، لنستقي منها عناصر جديدة ، دون ان نتخلى عن خصائصنا القومية والمحلية :

اسمعه يقول في هذا المعنى :

« يسافر التاجر الخبير كل عام الى اوروبا ليرى مانزل الى اسواقها من جديد ، فهل يتبضع غير ماينفق عندنا ؟ فلماذا لايفعل مثله أدباؤنا ؟ ان اتكالنا على عبقريتنا وحدها ، والتفاتنا دائما الى الوراء لاينفع ولا يكون الا ادبا سخن المهب يلفح الوجه ويمص الماء من العود النضير . لسنا بهذا نعني القديم بجملته ، ففي القديم مالا يعتق ، ولا ننفخ في البوق لشن الغارة على آداب العالم . ولكن الهجرة تهذب الطباع وتدمث الاخلاق ، فكم من معاز هاجر ثم عاد « مستر » او « سنيور » . لنتغرب معتصمين بخواصنا الشرقية والا صار ادبنا لا غربيا ولا شرقيا . اننا نريد التطعيم وحسبنا خواص التربة ومؤثرات الجو والمحيط ، فحتى الطيور تستفيد من الاستيطان .

ليس الفن والحياة فقاقيع صابون ، كما يقول رومان رولان ، حتى نلهو بتعابير الاقدمين ونرصع بها كلامنا . اننا نحتاج الى الثقافة النقية حاجتنا الى نور الشمس ، وهذا لانجده في آداب العرب وحدهم ، فالفرنجة لايخجلون اذ يردون عناصر ادبهم الى مصدرها ، فلماذا نكون نحن كأجدادنا الذين يرون الفصاحة كلها في كلامهم ؟ » (١)

ومن مظاهر الروح العصرية عند مارون وهي جانب من نزعته الثورية دعوته الى ضرورة تطوير ادبنا بصورة مستمرة . فاسمعه يقول في الموضع نفسه (٢) .

« ان اداب العالم في تطور مستمر ففي كل عام اتجاه جديد ومدرسة حديثة ، فهل عندنا شيء من هذا ؟ »

وكذلك دعوته لفتح ابواب الادب واسعة لدخول لغات الحياة واصدائها :

« احدث جبران مدرسة لم تعش طويلا . اما الان فمعظمنا لايؤمنون بصلة الادب بالحياة . ولذلك تسد بوجهنا ابواب الرزق » (٣)

وهذه الدعوة ربطت مارون بروابط الصداقة العميقة او الاعجاب من بعيد بالكتاب الذين عالجوا المواضيع المتصلة بالحياة اليومية : كعمر الفاخوري والريحاني والمازني .(٤)

واسمعه في مقالته الهامة : الادب الحديث بين الاسلوب والتعبير ، والوزن والقافية ، يدعو للانتفاض على عبودية القوافي وللتحرر من وثنية الاوزان .(٥)

« واما الشعر فهو صريع الاوزان وقتيل القوافي . لست ثائرا على علم العروض او من دعاة الشعر المنثور الذي شبهه احد نقاد الفرنجة بالوطواط .

انني أرى في الاوزان العربية وحدة موسيقية يؤلف كل وزن منها لحنا خاصا ، فمتى لفق شاعرنا الفاظه ، واستقام الوزن كانت الموسيقى ، ولهذا لايبالي شاعرنا بألفاظه الا قليلا ، بينما نرى شعراء العالم يخلقون من توافق الالفاظ موسيقى يوفق اليها كل شاعر بحسب طبعه واجتهاده . فالانكليزي يلتزم التشديد مرات في البيت والفرنساوي يختار الفاظا رنانة متحدة ومنفردة ، اما الشاعر العربي فاذا عبأ مفاعلتن مفاعلتن فعولن كان له شعر رنان وقصيدة عصماء .. ومتى رصف الفاظا عربية وتعابير مأثورة وقوافي بأخذها بأونها ليقعدها حيث شاء كان من الشعراء الفحول الكبار ! »

الا يحق لنا ان ندهش لصدور هذا الرأي الجريء ، الحديث الجديد كل الجدة من شيخ ابن سبعين قضى عمره في تدريس دروس الشعر العربي التقليدي وفي غرس بذور المحبة والاعجاب بهذا الشعر في نفوس الاجيال المتعاقبة من الطلبة من كل افق . انه هنا يرفض كل الماضي

(١) دمقس وارجوان ، ص ٦٥

(١) دمقس وارجوان ، ص ١٧

(٢و٣) المصدر نفسه

(٤) جدد وقدماء ، ص ١٥٩ و٢١٦

(٥) دمقس وارجوان ، ص ١٧

الشعري الذي قضى حياته في التنقيب عن اسراره ، انه ينفي كل قيمة انسانية حقيقية عن الشعر التقليدي الذي يفرغ فيه الشاعر عواطفه في قوالب جاهزة من الاوزان والقوافي وموضوعة بصورة نهائية لا علاقة لها بالمحتوى العاطفي والفكري ، ويدعو الى تطوير العمل الشعري بحيث تصبح العلاقة بين المحتوى والقالب الشعري علاقة عضوية ، علاقة الشكل بالمادة ، اي علاقة الحياة الفاعلة فيتفق النغم مع الانفعال الراهن والفكرة الخاصة ويأتي على قدرها الحالة النفسية ووفاقا لهما وتبعا لمزاج الشاعر ولحالته النفسية ساعة الخلق الشعري !

انها نظرية لم يجرؤ احد من ابناء جيل مارون على المصارحة بها .

ولا عجب فمارون الثائر اعتاد دائما على ان يقول كلمته ويمشي مثل صديقه الريحاني .

وقد يكون من الجوافز له على هذه الجراة اعتقاده بقيمة الخلق الفني والادبي . التي لا يعلو عليها شيء وايمانه بانه كاديب يحقق شيئا فذا سوف يبقى بينما يتعرض للزواج كل سلطان يحمل اسباب الرغبة والارهاب . فلنستمع الى قوله في الفن ردا على فكرة ارسطو المعروفة « الفن تقليد او محاكاة للطبيعة » (١)

« الفن ابداع طريق وخلق جديد يشارك فيها الفن الطبيعة في نواميسها الازلية . لا شيء يخرج من دائرتها والفن احد هذه النواميس التي لا تحدد . والفنان الخلاق « يفنن » الطبيعة و « يطبع » الفن فيتحدان اتحادا ثالوثيا يصيران به واحدا ..

« لست ارى الفن علما باصول . ولكنه ذوق ينمي . اني اعلم التلميذ الا يخطيء ولكنه لا اصيره كاتبا .»

وفي موضع اخر هو يعبر عن الدور الثوري الذي يلعبه الادب في الحياة الانسانية فيصوره وسيلة لتقويم اعوجاج المجتمع تقارب بعنفها وفعاليتها فعل السيف والمدفع فيقول مخاطبا نسيب عازار (٢) :

« ليس الادب نقد الحياة فقط كما قال ماتيوارنولد ، احد اصحابك الفربيين . بل الادب ثورة على الحياة . والادب ند الحياة . والعبقرية ضرتها . هو يريد ان يقوم اعوجاجها بالسيف كاعرابي ابن ابي الخطاب»

واعتقاده باهمية الفن والادب حمله على ان يعلن ان الابداع الفني وحده هو الذي يهب القيمة للمحتوى بصرف النظر عن موقف الدين والاخلاق(٣)

« الفن يصور الطوباوية والعاهرة بريشة واحدة الوان واحدة .

ومن كليتهما يخرج خلقا يتمجد به .

واي حرج علينا ان درسنا الفن الهندي كما ندرس لاهوتيا جميع خطايا اللحم والدم لنتقي شرها . امحوا ايها الذين يهمكم الاخلاق في الفن ما لا ترضى عنه طهارتكم من اياته . ثم قولوا لي اي الخسارتين افدح . اظنني ذكرت قول الاخطل : « الشعر لا دين له وقول صاحب يتيمة الدهر : ليس الدين معيارا للشعر .

واخيرا اقول مع رينان : ان لا ادبية الفنان السامية هي نفسها ضرب من ضروب الفضيلة السامية »

وهنا كما في كل المواقف الاخرى ينتهي مارون الى موقف التحدي للتقاليد والمواضعات التي يقبع عندها القطيع الانساني وهنا كما في المواضيع الاخرى تأبى نزعته الثورية الا توجيه الصفعة للفريسيين والمنافقين من المتظاهرين بالتقوى والدفاع عن الاخلاق .

لقد مجد مازون الشعر والفن الاصيلان لانهما مظهر تجلي القدرة الخلاقة في الحياة ، وفي هذا الكائن الفذ الذي هو الانسان

وهذا المقاتل الساخط ابدا ، الساخر دائما لا يعدم الكلمات الحلوة يلقيها في تمجيد الانسان الذي يرى فيه غاية الغايات في التعلق بهذا الكون وسبب مباهجه ومعنى جماله وحلاوته وموضع الاثارة فيه اليس مارون هو القائل (٤) :

« فكيف تكون الارض اذا خلت من الانسان ؟ انه الاله الذي يرى المجد للاله الارضي ، ابي العجائب ، المجد لهذا القصير العمر النابش مطامير الاب القديم الاجيال . ما ابشع الارض بدون الانسان وما اعظم صنع هذا الاله الترابي . انه يهدم ليبني ويموت ليحيا في الذرية خيرا وابقى »

لاجل هذا الانسان ظل مارون متفائلا رغم ويلات الحرب الكونيه، وظل يدعو للامل بالحياة وبالمستقبل الانساني ، ويمجد العمل الضروري لبناء هذا المستقبل . فاسمعه يرد على الذي كان يدعوه للتوقف عن العمل بسبب الحرب (١)

« ومن يكفل لي انقضاء الحرب ؟ اليس الشيب ابن عم الموت ؟ انقعد في دنيانا كمن يتلهى في غرفة الانتظار ؟ انتسلى بما على جدرانها من مشاهد وفي النفس الف مشهد ومشهد يحاول ان يخرج . انقل على تصفح ما لا يجدي والنفس تتمحض لتلد ما يقرأ ؟

اذن يجب ان نعمل وننتظر ذلك الضيف الثقيل بل الضعف العادل، فالظلم بالسوية عدل في الرعية

ثم هو يتمثل بقول احد الفرنجة : انا اعمل واجبي حتى اذا مر موكب العدم مشيت في ركابه وقد قمت بما علي » .

هذا التقديس للحياة في انبل معانيها ووجوهها : حياة العمل الخلاق حمل مازون على ان يقف من القضية الميتافيزيقية الابدية ، قضية الحياة والموت الموقف الذي ينتظر من ذهن وقاد وساخر ووضعي .

فهو من جهة لا يخفي حبه الجم للحياة وللناس الذين يحبون الحياة وكرهه للموت وللذين يتفنون به . فاسمعه يقول في معرض حديثه عن شوقي وحافظ (٢)

« ان شوقي يحن الى الحياة والى فلذات وامجاد الحياة ولهذا احبه ... اما صديقي في الشباب ، حافظ ابراهيم ، حافظ البائس المسكين فاكثر حنينه الى الموت ، وما انا ممن يحبون الموت ولا المشتاقين اليه» . وهو في مكان اخر يقول (٣) : ان يوما هانئا على وجه الارض لخير من كل ما يعمل له وهو في بطنها . اذا ذهبت النفس فلا اسف على الجيفة ».

والذي عرف مارون عبود في عين كفاع ، في جوه الاليف حيث كان يطلق نفسه على سجيتها ، بعيدا عن ضرورات التظاهر بالوقار والرصانة في جو الدراسة في المحافل الرسمية ، يذكر مدى الطاقة الحياتية التي كانت تتفجر في ملامحه المنطلقة ، وفي ضحكاته المكركرة وفي سيل نكاته المتلاحقة وذكرياته المستملحة وفي اشارات يديه وتلمظ شفتيه وهز حاجبيه في اصابعه عندما تتلاعب بكاس العرق المصفى والمعتق في قبوه . انه يذكر مدى الزخم الحي الذي كان يدفق في كيان ذلك الشيخ الذي لم يستطع الدهر ان يقهر شبابه النفسي ونهمه للحياة لمباهجها البسيطة السليمة التي كان يقبل عليها باطمئنان لانه يجد فيها ينابيع وحوافز ومادة لادبه . ان زائر مارون في عين كفاع الصغيرة التي جعلها منارة ومحجة لرواد الفكر والادب ، لا يخرج منها الا وقد انطبعت في مخيلته الى الابد صورة عن العافية والصحة النفسية والعقلية والعاطفية والفنية مجسدة في انسان لم يعرف الانحناء لا امام الملوك والرؤساء والزعماء ولا امام ثقل الايام ، وعندما ازدادت وطأة المرض لم يزحف ولم يدب وانما هوى كالسنديانة التي تقصفها العاصفة .

ومن جهة اخرى يدلنا مارون على سر احتماله متاعب الحياة وهمومها بهذه الكلمة يقولها لعمر الفاخوري عندما كان يتقلب في فراش مرضه الاخير(٤)

« عدت عمر اول مرة ..

حتى قال لي : وجهك اصفر !!

---

(١) دمقس وارجوان ص ٢٣٢

(٢) دمقس وارجوان ص ٢٣٣

(٣) المصدر نفسه

(٤) دمقس وارجوان ص ٣١

(١) المصدر نفسه

(٢) دمقس وارجوان ٩٥

(٣) جدد وقدماء ١٩٦

(٤) جدد وقدماء ص ١٩٦

فاجبته : الدرب طويل ، والسلم عال ، وانا ابن ستين فاصبر علي قليلا بعد جمالي الهارب !

فابتسم ابتسامة دميمة وقال : تنهكم على نفسك اذا لم تجد واحدا غيرك

فقلت : ما وجدت ترياقا لسم الحياة اشفى من الهزء بها وبناسها »

واخيرا اود ان انهي هذا الحديث بهذه المقاطع الواسعة من قصة « روداج » التي يتحدث فيها مارون عن مغامرته عندما دخل المستشفى لاجراء اولى العمليات التي كانت بداية عذابه الجسدي واول النهاية لحياته العامرة . انها تعطينا صورة حية بقلم مارون عن جوانب من طبعه الساخر حتى في موقف الموت وتعطينا المفاتيح لاسباب قدرته على « غلبة الموت بالحياة ، ولاسرار ضعفه وقوته التي كانت تقف حافزا وسندا لنزعته الثورية الدائمة : (١)

« قالت العرب : على الرائد ان يصدق اهله وانا قد استنفرني القدر الى الابدية ولكنني كنت سفيرا غير مرغوب فيه فارجعت عن الحدود . وقفت على ابوابها ولما ادخلها وعدت على اعقابي اشكر من يشكر على المكروه ، وابي وجدي اللذين اورثاني هذا الموتور ، اي القلب الذي لم يحتج الى خرط ولا ولا .

وما استرحت من الام الاحتقان الطبيعي الحادة حتى بقيت ستة اشهر كاملة اعاني الم الاحتقان الفكري ، مرت احداث خطيرة لم اعلق عليها ، ولكن الغد لنا فسوف نعلق ان شاءالله . اذا قلت لك انني منذ بلوغي رشدي لم انقطع عن الكتابة يوما واحدا فصدقني ، اما اذا كنت مثل توما لا تصدق ما لم تضع اصبعك فتعال لاريك دفترا من دفاتري يرجع تاريخه الى اكثر من نصف قرن ، فترى اثاري الاولى وتضحك من مارون عبود الماضي اذ لا ترى فيه الا شيئا لا يكاد يدرك من ملامح مارون عبود الحاضر . فانا يا اخي عملت نفسي على ذوقي ، فان كان اعجبك شيء فالفضل فيه لي لاني ماشيت الزمن فلم اتخلف عن ركبه ساعة ، واني اعاهد الشباب على هذا وارجو ان يعملوا دائما وابدا وهم واصلون الى ما يبغون ..

اليس المستشفى كالسجن ؟ كنت هذه المرة اشد خوفا مني في المرة الاولى . ولكني بقيت اشجع نفسي واقول لها : العملية ناجحة بدون ريب ، وظللت اكرر ذلك حتى تمكن هذا الاعتقاد في نفسي . وبعد فانا لم اخدعها ما زال يسعف الجراح قلب كالمهدة ، ورئتان كجناحي العقاب ، وكليتان كنبع افقا يحنو على هذه كلها صدر كالكيرعامر بالاستهزاء بالموت والاستخفاف به .

« كان قبالتي في غرفتي مصلوب ـ لا تظن انه ظهر لي كما ظهر للبابا . قلت له : هبني يا سيد شيئا من شجاعتك لاستقبل الموت ، فالعملية ليست لعبة في كل حال . انت طلبت من ابيك ان يجيز عنك الكأس ، ولكنك شربتها ولم تجزع ولم ترع . شربتها ليكسب الناس الحياة الابدية فغلبت الموت بالموت ، وانا سأشربها لاغلب الموت بالحياة واكتب بعد . وعزائي على عيشتي ارمل دهر هو ان ابنائي لم يكونوا كتلاميذك الذين لم يسهروا معك ليلة واحدة . انهم لم يناموا قط »

لا يا استاذنا مارون ، ان تلامذتك لم يناموا قط لا يوم دخلت المستشفى ولا يوم تجاوزت التخوم الابدية التي لم يرعك يوما عبورها لو كان في عبورها ما يغني ادبك ويزود قلمك بمادة جديدة تهبها للناس ، لقرائك لتلاميذك المبثوثين تحت كل سماء .

ولم تكن وانت الخاسر يوم قمت بالمغامرة الكبرى فاقلعت الى حيث ترجو ان تجد جوابا للسؤال الابدي : وماذا بعد ؟

اما الخاسرون فنحن الذين كنا نفتقدك في الملمات والذين لن يقدر لنا ابدا ان نظفر منك بالجواب الفذ ، الجواب الطريف الذي لا يعرف ان يحمله غيرك .

علي سعد

(١) احاديث القرية ص ٢٣٤ ـ ٢٣٦

نقد القصص

ـ تتمة المنشور على الصفحة ١٠ ـ

بدور الى اعقد مشكلة تواجه الانسان ، مشكلة تلك الساعة التي تدق ، ثم ماتلبث ان تقف ، هكذا ، بلا انذار ، بلا مبرر ، فتطوي الانسان في عالم النسيان المعنوي ، وتترك شريكه السابق في درب الحياة وحيدا حائرا ، لا جواب على شفتيه .

ومنذ ان استيقظ الفكر الانساني وهو يسعى لان يجد للموت حلا او تفسيرا ، وكان شبحه الرهيب عنصرا هاما من عناصر الادب ، وما يزال هذا الشبح يرهبنا ، ويثبت في كل لحظة وجوده القاطع . اليس انغماس الفلسفة الوجودية المعاصرة في الحياة والوجود دليلا غامضا على الهروب من مجابهة موضوع الموت ؟ اليس انكارها له دليلا على فعاليته في هذا الوجود نفسه ؟ وفكرة العبث هذه ، تلك التي تؤرقنا ، اليست هي ايضا وليدة شبح ذلك الموت . لماذا هي تافهة حياتنا ؟ اليس لاننا ، سنمضي ، هكذا ، بكل بساطة ، وبلا مبرر ، وكأن شيئا لم يكن .. فاي جواب لنا ؟

منا من يفلسف هذا الجواب ، ومنا من ينفعل به ، ويحكي قصة انفعاله . وهذا مافعله الكاتب هنا . انه يروي لنا قصة انفعالاته بالموت عندما كان طفلا ساذجا لايمثل له الموت الا رجلا مسجي مغطى بشرشف ابيض . ولكننا نؤمن بانفعاله فيما بعد ، ونصدقه فيقشعر بدننا خوفا من ذكر الرجل المدفون حيا وقد جلس القرفصاء في قبره ثم مات من الخوف . اننا ، في كل لحظة يشملنا السكون والوحدة والظلام ، يستيقظ فينا الطفل البدائي ، وتروح اشباح الاموات تتراقص امام اعيننا رهيبة مهددة ، فنكاد ان نموت جلعا .

ولكن حين يطلع علينا النهار ، وتغمرنا الحياة ، ومنطق الحياة ، نرى اية تفاهة نعيشها . فالموت في غاية البساطة : تقف الساعة ، ثم ينهال التراب على الجسد الذي كان حارا . ولا ينفعل بطل هذه القصة لهذا المشهد ، بالرغم من ان اليت عم يحبه .

على ان الكاتب ، بالرغم من جو اليأس المسيطر على القصة لايبدو في نهاية الامر متشائما ، جاحدا للحياة . فهو يتصور ان في الدنيا اشياء جديرة ان تعاش الحياة من اجلها . هناك الحب ، والعاطفة الانسانية التي لاتموت . ولعل اوقع ما في تلك القصة ، ذلك الاخلاص الذي احتفظ به التلميذ لاستاذه الراحل ، وتلك الدموع الحارة الصادقة التي ذرفها ، والتي ابكت البطل من دون ان يجد لبكائه تبريرا . لا . انها ليست من اجل ابيه ، ولا من اجل عمه ، انها من اجل هذا التلميذ .

كنت افضل الا يحسم الكاتب شعوره ، وان لايقع في آفة الشرح والتقرير . وان يترك تساؤله مقترحا قابلا لتفسيرات شتى ، يستشفها القارىء نفسه . وانا اميل الى الاعتقاد ، وفقا لسياق القصة ، ان تلك الدموع لم تكن من اجل التلميذ المخلص كما حسم المؤلف بل كانت تعبيرا مبهما لذلك الخوف الابدي من الموت ، ومن شبحه الرهيب الذي سينقض على امه التي يحبها ، ومن تمثله نفسه يحل محل التلميذ باكيا امه ؟ وهذا مايفسر اطمئنانه حين سمع ان ساعة امه ماتزال تدق .

قصة عميقة بموضوعها ، بسيطة في طريقة عرضها وتصويرها ، صادقة في انفعالاتها ومشاعرها وتبريراتها ، سلسة في اسلوبها ، وتلك مزايا ، اعترف ، انني قلما وقعت عليها في قصص علي بدور .

وربما كان تعليل ذلك ان القصة تشعرك بانها من صميم الحياة ، وان المؤلف قد عاش فنيا لحظاتها وانه صادق في نقلها الينا .

ولقد احببت فيها فكرة هذا التناقض العجيب الذي تقوم عليه القصة ؟ الا يبكي الانسان الموت ، الذي يفنى ، وان يبكي من اجل مظهر من مظاهر نقيضه الذي يحيي .

عايدة مطرجي ادريس